الفصل الثامن

إعادة بناء عالم محطم

على مدى السنوات الثماني الأولى من تاريخ عمل البرنامج، احتل ستوديو 360 الطابق الثلاثين في البرج الدائري على قمة مبنى البلدية في مانهاتن السفلى. في كثير من الأحيان، كان الزوار يدهشون للمنظر البانورامي الخلاب المطل على المدينة من خلال نوافذ الاستوديو، حيث كان بإمكاننا أن نرى كل شيء إلى جهة الشمال حتى بناية الأمبير ستيت ومبنى شركة كرايسلر؛ ويكمن رؤية كل شيء إلى جهة الغرب حتى نهر هدسون، وعند النظر إلى جهة الشرق من داخل مكتبي، كنت أستطيع رؤية جسر بروكلين. عند العمل حتى وقت متأخر من الليل، كنت أشاهد الطائرات القادمة للهبوط في مطار لاغورديا في كوينز.

في السنوات الأولى من عملي، كنت، دائمًا تقريبا، أول من يصل إلى المكتب، حيث كنت حريصًا على إتمام العمل قبل وصول الفريق. ولهذا السبب، وقبل الساعة التاسعة صباحًا في صبيحة يوم مشرق وصافٍ بصورة مدهشة من أواخر أيام الصيف، كنت وحيدًا في مكتبي، عندما سمعت ما يبدو كأنه انفجار هائل.

علـى الفـور، ودون تفكير، أمسكـت بحقيبتي وهرعـت أركض إلى الأسفل فوق أربع دورات من السلالم المتعرجة حتى وصلت إلى مكاتب إدارة محطـة WNYC الرئيسـة في الطابق السادس والعشرين. حيث كان الباب المؤدي إلى السطح مفتوحًا. وعندما خرجت رأيت كثيرًا من الزمـلاء يحدقون نحو جهة الغرب وأفواههم فاغرة، حيث كانت تشتعل النيران في مركز التجارة العالمي.

حفـرت تلك الصـورة في ذاكرتـي، حيث كان لهب النـار الأحمر الغامـق يندفع بشدة وعنـف من الجانب الشمالي مـن البرج الشمالي، وحيـث وابل مـن الشظايا الفضيـة اللون تتناثر فـي الفضاء من خلال الواجهـة الجنوبيـة للمبنى. قـال أحد الرجال الذين كانـوا يقفون على السطـح: كنت جالسًا فـي مكتبي ورأيـت طائرة، واعتقـدت أنها كانت للخطـوط الجويـة الأمريكية، وقـد اصطدمت بواجهة مركـز التجارة. أمسكـت بـه وانحدرنـا على السلالـم نركض وصولًا الى غـرف البثّ المباشـر فـي الطابق الخامـس والعشرين؛ كي يتمكن مـن إبلاغ مذيع نشرة الأخبار الصباحية في محطة WNYC، و جمهورنا، بما شاهده.

لقـد كان بـرج البث موجـة FM التابـع للمحطة علـى قمة مركز التجـارة العالمي، وكان قد تحطم وانقطـع بثنا على الهواء. ولكن كانت موجة WNYC / AM لا تـزال تعمل وتبث البرامج، وبدأ الجميع يتبارى لتغطيـة الكارثة التي كانت تكشف عن ثلاث كتـل من المباني المهدمة إلى الجنوب من مكان عملنـا. ركضت نحو غرفة الأخبار لتسلم رسائل مراسلينا الميدانيين الذين وصلت للتو لبدء العمل، وأتذكر رؤية زميلتي

نـوالا ماكفرن تحدق من النافذة، قائلة: كل أؤلئك الناس، الذين بدؤوا العمـل في وقت مبكر من صباح اليوم الثلاثاء الجميل، سوف لن يعودوا أبـدًا إلى منازلهم. أعتقد أنني كنـت في حالة صدمة كبيرة، فقد كانت أول مرة أدرك أن كان هناك أشخاص مثلي، كانوا يجلسون على مكاتبهم عندما اصطدمت الطائرة بالمبنى.

ثم اصطدمت الطائـرة الثانية بالبرج الجنوبي، ما أصبح واضحًا أنـه لم يكـن حادثًا عفويًّا رهيبًـا. رفض بعض المنتجيـن والصحفيين الشجعـان مغـادرة المحطة وإخـلاء المبنى، وكذلك فعلـت لورا ووكر، رئيسة WNYC ؛ من أجل الحفاظ على استمرار بث المحطة على الهواء مباشـرة. جمعت بعض الزملاء، وهبطنـا خمسة وعشريـن مجموعة متواصلـة من درجـات السلم، وصولًا إلى شارع مركـز التجارة العالمي حيث شاهدنا النيران تشتعل في كلا البرجين.

وبينمـا كنت أنـا وزميلين نسير على الطريـق متجهين نحو مركز المدينـة، سمعنـا أحد المذيعين علـى المذياع يقـول إن أحد البرجين ينهار. استدار أصدقائـي نحو البرج ليشاهدوا سقوط الهياكل. حدقت إلى الأمام مباشرة، إذ لم يكن بمقدوري النظر إلى الخلف ومشاهدة ما يحدث، على أمل أنه إذا لم أستدر بنظري فقد تبقى المباني على حالها بطريقة أو بأخرى.

كانـت معظـم الجسـور والأنفـاق المؤديـة إلـى داخـل المدينـة والخارجـة منهـا مغلقـة، وكانت القطـارات قد تأخرت عـن مواعيدها كثيـرًا، حتـى لو سُمح لها بالانطـلاق إلى خارج المدينة. لـم أتمكن أنا

وزميلي من الوصول إلى منازلنا في ولاية نيو جيرسي حتى السابعة مساء من تلك الليلة. لكننا كنا محظوظين، ووصلنا إلى البيت. ولكنّ بعضًا من جيراننا لم يعودوا إلى منازلهم... ولن ...أبدًا.

في صباح اليوم اللاحق، لم أتمكن من التواصل مع فريق عمل برنامج ستوديو360 في نيويورك؛ لأن خطوط الهاتف كانت قد تقطعت ولم تعد تعمل. ولكنني تمكنت من الاتصال بميليندا وارد، مديرتي في محطة إذاعة الجمهور الدولية، في مينابولس، حيث كانت الشخص المسؤول عن الحصول على موافقات إذاعة الجمهور الدولية لتطوير ستوديو 360. عندما تحدثنا في صباح ذلك اليوم، قلت لها: أعتقد أننا يجب أن ننسى العرض مبدئيًا؛ لأننا لن نستطيع تقديم أي شيء مفيد في ظلّ مثل هذه الأحداث الفظيعة؟ قالت ميليندا: جولي، استعدي، يجب أن نقدم البرنامج، فنحن في حاجة إلى ما يستطيع تقديمه الفنانون الآن أكثر من أي وقت مضى!

وعليه، نظّمت مؤتمرًا من خلال الهاتف في مينابولس؛ لأن لا أحد في منطقتنا كان باستطاعته التواصل مع أي شخص آخر في نيويورك أو في نيو جيرسي، وطلبت إلى منتجي برنامج استديو 360 المبدعين الاستعداد للعمل. ولأن مبنى البلدية وجميع مناطق مانهاتن السفلى قد طُوِّقت، فإننا لم نتمكن من الوصول إلى أي من الأشرطة الصوتية أو معداتها. ولكننا وجدنا استوديو في وسط المدينة حيث تمكنا من التسجيل؛ اتصلت بالشاعرة ماري بونسوت، التي كانت قد كتب قصائد عن الحرب والخسارة، والملحن جون غوريغيانو، الذي كانت أولى سيمفونياته تذكارًا للأصدقاء الذين لقوا حتفهم بسبب الإيدز.

بضعة أيام بعد من أحداث سبتمبر 11/9، كانت الشاعرة بونسوت وغوريغيانـو يجلسان في الاستديو الـذي استُعير للتحدث مع كورت عن الفـن في أعقاب الإرهاب. كانت المحادثة واسعة النطاق ومدوية بقوة. لقـد كانت مليندا على حـقّ تمامًا؛ فقد لامس البرنامـج وتر مستمعينا العاطفـي، حيث كتب كثير منهم يشكرنا على تقديم العزاء في مثل هذا الوقت العصيب.

لقـد كان من الضـروري أن يُقدّم برنامج استديـو360. فقد مكننا العمـل من التركيز، ووفر لنا الهدف فـي الفوضى حتى عندما لم نتمكن من الوصول إلى المحطة؛ فقد ساعدتنا الموسيقا، والشعر، والمحادثة مع هؤلاء الفنانين، نحـن ومستمعينا على الاستمرار في التحرك إلى الأمام مرة أخرى، بعد أن تحطم عالمنا في ذلك اليوم الصافي من شهر سبتمبر.

يستطيع الفنانون إعادة بناء العالم لنا عندما يتمزق نسيج الحياة اليوميـة بوحشية. وفيما يلي ثلاثة ممن كانوا شهودًا على بعض المآسي الأكثـر تدميرًا فـي أوائل القرن الحـادي والعشرين، الذيـن عملوا معًا لتذكر تلك الأحـداث المروعة وتحويلها إلـى موسيقا تتجاوز ما حدث، ومسرحيات تبث الأمل، وصور فوتوغرافية لتبقى ذكرى لما حدث.

تسابق تيرينس بلانشارد مع الزمن لإجلاء عائلته من نيو اورليانز قبل أن يضربهم إعصار كاترينا، وعاد مع والدته ليجد منزلها أثرًا بعد عين. ألّف بلانشارد في وقـت لاحق الموسيقا التصويرية المؤثرة لفلم سبايك لي الوثائقي عما بعد كاترينا، وهو بعنوان عندما تنكسر السدود والحواجز.

سافـرت الكاتبة المسرحية المولودة فـي بروكلين، لين نوتاغ، إلى أوغنـدا لتقابـل النساء اللواتـي كُتب لهـن النجاة من الحـرب الأهلية القاسيـة في جمهورية الكونغو الديمقراطيـة. مستوحاة من قصصهن الاستثنائية فـي المثابرة في مواجهة الاغتصـاب والفظائع، كتبت لين مسرحيـة رويند، وهي المسرحية التي حازت جائـزة بوليتزر عن الألم والأمل.

أمضـت جويل مايروتـز شهورًا عدة في غراوند زيـرو، توثق دمار مركـز التجـارة العالمـي، وشجاعة العمـال الذين استصلحـوا الموقع ومثابرتهـم. لقد استخدم هـؤلاء الفنانون مواهبهـم للبحث من خلال الدمـار والأنقاضـ عـن كلّ ما يمكن تعلمـه، وإلقاء الضـوء على مرونة الروح الإنسانية على الرجوع إلى ما كانت عليه .

obeikan SPARK .com

عازف البوق والملحن

تيرانس بلانشارد

الكشف عن مأساة خاصة

« فـي رأيـي، يمثـل البوق النـاس وهم على سطـوح المنازل يبكون طلبًا للمساعدة، ولكن ما من مجيب».

فـي واحد من أكثر المشاهد تدميرًا فـي فلم سبايك لي الوثائقي عـن إعصار كاترينا، عندمـا تتكسر السدود والحواجـز، تتبع الكاميرا تيرينـس بلانشـارد ووالدتـه، ويلهلمينا، فـي أثناء طريـق عودته لرؤية منـزل طفولته أول مرة منذ الفيضان. وحتى قبل أن يفتح باب الحديد، بـدأت السيـدة بلانشارد في البكاء، وبـدأ ابنها محاولـة تهدئتها. قال بصـوت متهـدج: يمكنك إعـادة بناء هذا. فقالـت: يا إلهـي، إن القول أسهـل بكثير من الفعل. في الداخل، تفقدا الغرف المألوفة، التي أصبح التعـرف إليها صعبًا؛ بسبب التدميـر المفاجئ. وبعد مرور بضع دقائق مشحونـة بالعاطفة، حـاولا من خلالها تحديد قطع الأثـاث التي قلبت، والأسـى والحـزن يُطبق على إطـارات الصور التي فُقـدت من داخلها، أمالت السيدة بلانشـارد رأسها وأسندته إلى إطار الباب وأجهشت في البـكاء. كان عنـاء تلك اللحظة المبـرح مفجعًا. قـال بلانشارد: كانت

obeikan.com

لحظـة وصولنا إلى هناك واحدة من أصعـب المحن التي واجهتها غير لحظة دفن والدي.

تيرينس بلانشارد طفل وحيـد، ولد ونشأ في نيـو اورليانز. قال: لقـد نشـأت فـي بونتشارترين بارك، فـي الحي التاسع، ولكـن ليس في الجـزء الأسفل منه. وكأنني عشت ردحًا مـن الزمن في الجزء الأسفل مـن الحي التاسع عندمـا كنت طفلًا صغيرًا. تعلم العـزف على البيانو ونفخ البوق، عندما كان يدرس في مركز نيو اورليانز للفنون الإبداعية. غـادر بلانشـارد المدينـة للالتحاق بالكليـة، ثم انضم إلـى فرقة أرت بلاكـي ورسل موسيقا الجـاز، حيث حل لاحقًا مكان ينتـون مارساليس نافـخ بوق في الفرقة. بعـد ذلك، أصبح يضع موسيقا أفلام سبايك لي، وهي شراكة بدأت عام 1990 مع فلم مو أفضل بلوز.

عندمـا ضـرب إعصـار كاترينـا عـام 2005، كان بلانشارد مرة أخرى فـي بلدة مسقط رأسه مع زوجته وأطفالـه. قبل العاصفة، سارع بلانشـارد إلى تأمين سلامتهم في أتلانتا. قـال: حاولت حثّ أمي على المغادرة. فقالت: تعلم أن لهذه المدينة تاريخًا من الأعاصير التي تتجه نحونا، ولكنهـا لا تضربنا مباشرة. رددت، لم تضربنا كاترينا مباشرة! عليك مغادرة المكان حالًا، هل تودين أن تأتي معنا؟ قالت: لا.

مثـل كثير مـن العائـلات، انفصـل أفراد عائلـة بلانشـارد قبل العاصفـة، ولـم يكـن بمقدورهـم التواصل معًـا لبضعـة أسابيع. وجد بلانشـارد أخيرًا والدتـه في ولايـة ميسيسيبي، وأقنعهـا بالذهاب إلى لوس أنجلوس للعيش مـع عائلته مدة ستة أشهر، في حين كتب سيناريو

فلـم سبايك لي إنسايد مان. في لوس أنجلوس. استأجر لوالدته شِقَّتها الخاصـة، وقـال لاحقًا: كنت أبكـي عندما أصحبتها إلـى سوبر ماركت تارجـت حيث كانت تتسوق كلّ شيء، وكأنها طالبة في الكلية؛ كلّ شيء: الأدوات المنزلية، وبياضات الأسـرة، والسكاكين، والشوك، والمناشف والملابس... كلّ شـيء. كان عليها شراء كلّ شيء. وكنت أقول لنفسي: ما كل هذا التسوق؟ ولكن الشيء الوحيد في ذلك هو كوننا محظوظين.

بعـد مـدّة وجيزة، جـاء سبايك لي إلـى لوس أنجلوس للعمل مع بلانشـارد على موسيقـا الفلم، وأبلـغ الملحن أنه يريـد أن يصور فلمًا وثائقيًـا عن مدينة نيو اورليانـز وسكانها في أعقـاب إعصار كاترينا. قال بلانشارد: كنت احترم سبايك دائمًا، ولكن عندما صنع فلم عندما تتحطـم السدود والحواجز، زاد إعجابي به. وأضاف: إنّه شخص يتمتع بشعبية وشهرة، ولاسمه وزن كبير في مجال صناعة الأفلام. لقد غامر بـكل ذلك من أجل السماح للناس برواية قصصهم. لقد أعطى العالم لمحة كبيرة عما حدث هناك، ومن وجهات نظر مختلفة.

تكون الفلم الوثائقي من سلسلة من أربعة أجزاء، كان تمثيلًا رائعًا ومؤلمًا للعاصفـة، والفوضى، والكوارث التي تلت ذلك. قابل لي السكان الذين عاشوا خلال الفيضانات، والموظفين العموميين الذين سردوا ما حـدث، ولماذا كان الناس مضطرين إلـى انتظار الإنقاذ والإغاثة أيامًا عـدة. وقد تضمن الفلم لقطات تقشعر لها الأبدان لناجين تقطعت بهم السبل فوق سطوح المنازل، أو يلوحون بأعلام محلية الصنع للمساعدة، فـي حين كانوا يقفون فوق جسور مغمـورة جزئيًّا، وصورًا لأولئك الذين

لم يُكتب لهم البقاء على قيد الحياة، وتطفو جثثهم عبر شوارع المدينة التي غمرتها المياه حتى سطوح المنازل.

أراد لـي أن يتضمن فلمه الوثائقي وجهات نظر بلانشارد ووالدته كذلك. سأل سبايك والدة بلانشارد: هل ذهبت إلى منزلك حتى الآن؟ فـردّ بلانشارد ووالدته: لا. قال بلانشـارد: إذن، أريد تصويره. وافقت السيـدة بلانشارد، على الرغم من أن ابنها لم يكن متأكدًا أن ذلك كان الشـيء الصحيح الذي ينبغـي عمله. وأضاف بلانشـارد: كنت منفعلًا قليـلًا في هذا الأمر، وتحدثت مع أمي عـن التصوير، وسألتها : أتدرين مـا سيتبع ذلك؟ فقالت: نعم، أريد أن يتمكـن الناس من رؤية ما حدث هنا. لقد كنت فخورًا بها لفعل ذلك .

وعليه، عاد بلانشارد إلى نيو اورليانز في ديسمبر عام 2005، يقود سيارته ومعه والدته وطاقم التصوير لمعرفة ما تبقى من منزل والدته. قـال بلانشـارد: الضـوءُ الوحيدُ الذي كنـت أراه في طريـق العودة إلى منـزل والدتي ضوءُ سيارتي. وأضاف: أن تكـون سيارتي الوحيدة فقط علـى الطريق السريع، شعور لا يوصـف، ويؤدي إلى الاعتقاد بأن المكان الذي نشأت فيه أصبح مدينة أشباح.

وكما فعل لكثير من أفلام لي، كتب بلانشارد نصّ الفلم الوثائقي، وأكـدت موسيقاه ببلاغـة عواطف الإنكار واليأس. وقـال بلانشارد: إن تأليـف موسيقا هذا الفلم كان صعبًا جدًّا؛ ففي البداية، شعرت بأنني لا أستطيع التعامل مع فداحة المأساة. فقد تأثر كل شيء بشدة من جراء ذلك الحدث. وقد استغرقنا حينًا حتى في التفكير في القيام بمثل هذا

المشـروع. وبقى النـاس يتساءلون: هل تسمع الموسيقـا؟ ، فقلت: لا يا رجل. إنها ضخمة جدًا، وكان الشيء الوحيد الذي كنت أستطيع سماعه هو الصمت.

في عام 2006، تمكن بلانشارد من إعادة أسرته إلى نيو اورليانز، فـي حين واصل العمل على الفلم الوثائقي. وقال: من ناحية، اضطررت إلـى متابعة العمل بمهنية، ومـن ناحية أخرى، تأثـرت بشدة باللقطات التي كنت أشاهدها يوميًا. حيث كان معظم الناس الذين شاهدوا الفلم الوثائقـي يشاهدونه لنحو أربع ساعـات، ولكنني كنت أشاهده لأسابيع. وعندمـا أخـذت قسطًا من الراحة، أفقت من الحلـم لأجد الواقع الذي كنت أعمل عليه في الاستوديو.

فـي الجـزء الأول مـن فلـم عندمـا تتكسـر السـدود والحواجز، نشيدُ حـزن بمرافقة بوق بلانشارد. أطلق بلانشـارد على تلك القطعة الموسيقية السدود والحواجز. وفـي نهاية تلك القطعة، قال بلانشارد: يمكنك سماع الجمل الموسيقية، التي تمثل المياه، وكما يمثل البوق، في رأيـي، الناس علـى سطوح المنازل يبكون طلبًـا للمساعدة ولكن ما من مجيب.

أيضًـا، ألـف بلانشـارد قطعـة موسيقيـة أخـرى بعنـوان لحـن الجنـازة الحزيـن، وهـي الموسيقـا التـي وصفهـا بأنهـا طريقتـه في إظهـار الاحتـرام للموتـى، والحداد على وفـاة الأشخاص الذين ربما كانـوا جيرانـه. وأضاف قائـلًا: عندما تـرى تلك الجثث التـي تعرفها فـي الأحيـاء المجاورة، يقشعرّ بدنـك. وعندما نـرى أي شيء من هذا

القبيـل نعلـم أننا نشاهـد فلمًا في منطقـة حرب، أو في مـكان ما عبر المحيـط. مـكان بخـلاف المـكان التي تقطنـه. ولكن فـي واحدة من كبريات المدن الأمريكية، ومع هذا الدمار والموت، يصبح الأمر عصيًّا على الفهم.

عندمـا عُرض فلـم عندما تتكسـر السـدود والحواجز من خلال محطـة تلفاز HBO في الذكرى السنويـة للإعصار، حصل على جائزة بيبودي. وبعد ذلك بعام، أصدر بلانشارد قرصًا مضغوطًا من الموسيقا المستمـدة من الفلم، إضافة إلـى مؤلفات موسيقية جديدة كتبها وألّف موسيقاهـا مع فرقته. عندما أصدر بلانشارد القرص في أغسطس من عام2007، أخبرنا أن اسمه كان حكاية من إرادة الله: موسيقا لكاترينا. إنـه كل شيء عن نيو اورليانـز وكاترينا. إذ لا يمكنـك تجنب التجارب اليومية، ويجب عليك الكتابة عن تلك التجارب الأليمة. إذا كان عليّ من الناحيـة الفنية القيام بذلك؛ فقد أصبح عاطفيًّا جدًّا. لقد فاز القرص الموسيقـي النابع من أعماق القلـب، المليء بالألم والغضب إضافة إلى بصيص من الأمل، بجائزة جرامي .

قـال بلانشـارد: إن الشـيء الـذي كان مثيرًا للاهتمـام في هذا القرص الموسيقي في نظري، أنني لم أكـن أرغب حقًا في إعداده. لم أكن أريد أن أكون جزءًا من حركة الناس التي يقومون بها عندما يحدث شـيء ما، إذ يحاول الجميع القفز علـى عربة الحدث. ولكن، في الوقت نفسه، بدأت أدرك أنني جزء من القصة. وكوني فنانًا، لا يمكنني تجنب وضعي الاجتماعي.

ينهـي بلانشارد حكاية من إرادة الله بلحـن أسماه أمي العزيزة. وهو يبدأ بمقاطع موسيقية كانت منذ مدة طويلة في ثنايا ذاكرته. حيث يعـزف الكمان والتشيلو المقدمـة، وهي لحن حزيـن يرافقه بلانشارد بالبـوق منفـردًا بقـوة عظيمـة وبحساسيـة. إنها تحيتـه لِـ ويلهلمينا بلانشارد، التي كانت تعيش في منزل من الطوب أعيد بناؤه تمامًا، وهو المنـزل الذي وجدته هي وابنهـا خرابًا منذ مدة ليسـت بطويلة. حيث كثير من جيرانها لم يعودوا بعد. وقال بلانشارد: أنني حقًّا فخور بأمي؛ حيـث إن رغبتها بالسمـاح لسبايك لي بتصوير عودتهـم العاطفية إلى منزلهـم الذي غمرته المياه كان شيئًا مـن الصعب القيام به. . . حيث تصور لحظات خاصة جدًّا، ثم تجعلها عامة جدًّا. كان لحن أمي العزيزة مجرد وسيلة للتعبير موسيقيًّا عما لا تستطيع الكلمات قوله لأمي.

الكاتبة المسرحية لين نوتاغ

الاستماع إلى قصص لم تُقَصّ

«كيف يستمر الحب في الازدهار في مواجهة مثل هذه القبح؟».

في بداية مسرحية لين نوتاغ التمثيلية (الدرامية) رويند، التي حازت جائزة بوليتزر، تلقى جذوع الأشجار الخام الطويلة على المسرح، وتحاط بصورة مؤقتة بشريط غير متناسق من الكراسي الملونة والطاولات المتهالكة. في ضوء الشمس، تظهر الأشجار لتقدم غطاءً صغيرًا يقينا من حرارتها، ولكنها تبدو ذات مظهر يوحي بالتهديد عندما يقع عليها الضوء الأزرق في الظلام. وفي المثل، فإن الحانة مكان يمثل المأوى والخطر للنساء اللواتي يعملن فيه. تطلب صاحبة الحانة المتعجرفة وصاحبة القلب الحنون، ماما نادي، من زبائنها من رعاة البقر، وجميع أطراف الحرب الأهلية العنيفة، وعمال المناجم الذين ينقبون عن خام الكولتان الذي قد يؤمّن لهم مستقبلًا باهرًا، أن يتركوا ذخائر أسلحتهم عند الباب. يتلخص نهج ماما في التعامل مع الفوضى، والصراع المحتدم الدائم من حولها في المحافظة على بقاء عينيها مصوبتين على صندوق النقد، الذي تعتقد بأنه سيضمن

استقلاليتهـا. تقـول ماما نـادي لفتياتها: إذا كان العمـل يسير على ما يـرام، فسيحصل الجميع على حصته. أما اذا كانت الأمور عكس ذلك، فإن ماما هي من يأكل أولًا.

أوضحت لين نوتاغ بالقول: تقع حانة ماما في مكان ما في شريط غابـات إيتوري المطيرة، التي تقع في جمهوريـة الكونغو الديمقراطية. وأضافت: إنه المكان الذي يجتمـع فيه عمال المناجم والجنود للشرب والتخلص من توتر الحرب. وهو المكان الذي يوفر ملجأ للنساء اللواتي تعرضن للصدمة بسبب الحرب؛ وقد وفرت ماما لهن بيتًا.

إنـه ملجأ معقد. فقبـل أن وجدت تلك النسـوة طريقهن إلى باب تلـك الحانة، كـن قد تعرضن للاغتصاب والإيـذاء الجنسي، مثل آلاف النسـاء والفتيات الأخريات في وطنهن. فـي حانة ماما، تعمل ابنة أحد القـادة واسمها جوزفيـن، وامرأة بسيطة اسمهـا سليمة في البغاء على حـد سواء. أما الشابـة صوفي الجميلة، التي أبعدتهـا ماما عن الحانة، فقد عوملت بطريقة وحشية فظّة من قبل مغتصبيها إلى درجة أصبحت معهـا مشوهـة؛ رويند. وتركوهـا غير قادرة علـى ممارسـة الجنس أو إنجـاب الأطفـال أبـدًا. تقول نوتـاغ إن المسرحية هي قصـة استغلال النسـاء جنسيًـا، ليست عمليـة الاغتصاب فقط، ولكـن أثر الاغتصاب فيهن، والطريقة التي يستمر المغتصبون في استغلالهن أيضاَ.

إن افتراضـ نوتاغ بشع ومـروع، ولكن غالبا ما تعبـر شخصياتها عن الابتهـاج والتفاؤل التي تتناقض مع الإرهـاب. فعندما لا تعمل تلك النسـوة، فهن يتشاركـن القصـص، ويتشاجرن ويتخاصمـن، ويحلمن

بمستقبل دون حرب. قالت نوتاغ: أردت أن ننظر إلى الجانب الإنساني، فقد كنت مهتما حقًّا فيما يحدث للروح البشرية. كيف يستمر الحب في الازدهار في مواجهة مثل هذ القبح والوحشية؟

نشأت لين نوتاغ وترعرعت في بروكلين، نيويورك، وحصلت على درجة الماجستير في الكتابة المسرحية من جامعة ييل. ولكن بدلًا من تكريس نفسها لفنها، حصلت على وظيفة مع منظمة العفو الدولية. قالت: عندما تخرجت، شعرت بأنني في حاجة إلى أكثر من تلك التجربة المتسمة بوهم العظمة بكثير. لقد قضيت الوقت منذ أن كنت في الصف الأول وحتى تخرجي في كلية الدراسات العليا في الأوساط الأكاديمية، وشعرت أنني في حاجة إلى التفاعل مع العالم من أجل الكتابة. كانت نوتاغ الناطق الصحافي الوطني لمنظمة العفو، وذلك استمرارًا لتقليد عائلي من النشاط السياسي. أضافت: كانت والدتي على خطوط الجبهة الأمامية. وعندما كانت طالبة كانت عضوًا في حركة الحقوق المدنية، واستولت على إحدى الحافلات عام 1960 لتكون من ركاب الحرية، ثم إنها كانت تشارك في السياسة دائما.

بينما كانت تعمل مع منظمة العفو الدولية، قالت نوتاغ إنها كانت في بعض الأحيان تجد رواية قصص الناس الذين كانوا يعانون في جميع أنحاء العالم، وإعادة روايتها فيه كثير من التحدي. وأضافت: كنت أشعر بتطوير اللحمة والتعاطف عندما كنت في وظيفة من هذا القبيل. عندما تتعامل مع انتهاكات حقوق الإنسان يوميًّا، وتلقي نظرة على صور الاعتداء، تقوم بإطفاء جزء من نفسك؛ وهذا شيء فظيع

قولـه. ولكن عليك اتباعها مـن أجل البقاء على قيد الحيـاة؛ لأنك إذا تعاطفـت مـع كل صورة، فلن تكـون قادرًا على المضـي قدمًا في عملك طـوال اليوم. وهذا لا يعني أن تدير وجهـك جانبًا عن الرعب. بل يعني فقط في تلك اللحظة، أن تتعامل معها، وتنأى بنفسك عن ذلك.

عرفـت نوتـاغ أنها ترغـب في أن تكـون حـوادث مسرحيتها تدور في جمهوريـة الكونغو الديمقراطية؛ لأن الصـراع هناك طويل ومعقد. وكانـت محبطة لعدم وجود الاهتمام المناسب لذلك الصراع من قبلنا، فـي أمريكا، كوننا مستفيديـن من الفوضى التي تحدث هناك؛ من أجل استغلال موارد تلك الدولة. فنحن نستخدم الكولتان الذي يستخرج من تلك الأرض.

الكولتـان هـو اختصـار لكولمبيـت - تانتالايـت، وهـو خـام معدنـي يوجد في جميـع أنحاء الجـزء الشرقي من جمهوريـة الكونغو الديمقراطية. عند تسخينه، يصبح موصلًا جيدًا للكهرباء. إنّه يُستخدم فـي الهواتف المحمولة، وفي أجهزة الحاسـوب. وقبل كلّ هذا، هو وقود التقنيات الجديدة. إنّ التعدين والثروة التي تنتج عنه يزيد أوار الحرب الأهلية الدامية التي احتدمت في البلاد منذ عام 1998. ويقدر أن أكثر مـن خمسة ملايين مـن المدنيين قتلوا أو ماتوا خـلال السنوات العشر الأولى من الصراع؛ بسبب العنف أو المرض. في أكتوبر من عام 2009، ذكـرت أوكسفـام أنه خلال العشرة الأشهر الأولـى فقط من القتال في تلـك السنة، قُتل ما يزيد على ألـف مدنيّ، وتعرض أكثر من سبعة آلاف مـن النساء والفتيات للاغتصاب، وحُرق أكثـر من ستة آلاف منزل في

المقاطعـات الشرقية شمال كيفو وجنوبها. وفي عملية حسابية غامضة من قبل تحالف الأمم المتحدة، وُجِدَ أنه في مقابل نزع سلاح مقاتل من المتمردين خلال العملية، قُتِلَ مدني واحد، وتعرضت سبع نساء وفتيات للاغتصـاب، وأُحرق ستة منازل أو دمرت، واضطر تسعمئة شخص إلى الفرار من منازلهم.

ومـن أجـل تطوير مسرحية تنظـر إلى ما وراء تلـك الإحصاءات المحبطـة، أرادت نوتاغ أن تستمع مباشرة إلـى قصص النساء اللواتي عشن في جمهورية الكونغو الديمقراطية. ومن أجل ذلك، سافرت خلال عامـي 2004 و2005 إلى أوغنـدا المجاورة مع مخرجة المسرحية، كيت ووريسكي. قالت نوتاغ،: ذهبنا إلى أوغندا بسبب وجود أعداد كبيرة من النسـاء اللاجئـات الأوغنديات اللواتي تدّفقن عبـر الحدود، وسنذهب إلـى هنـاك بحثًا عنهن. لقد فوجئـت من قبل عدد النسـاء اللواتي كن يرغبـن فـي مشاركـة قصصهـن. وكانت الواحـدة تلو الأخـرى تروي حكايتهـا لنا، وبدأت أسمع بعضـ الموضوعات المتشابهة في القصص والروايـات جميعها. وأعتقد أنه في أثنا عملية الاستماع الى قصصهم، ولدت مسرحيتي.

بعد إجراء مقابلات مع أكثر من ثلاثين امرأة، وجدت نوتاغ نفسها مـع مئات من صفحات النصوص المكتوبة. قالت: بينما كنت أجلس في شقتي في حي بروكلين، وأقـرأ تلك الروايات، قلت لنفسي: ستعمل هذه المسرحيـة على تدميـري. كنت أعرف أننـي أردت رواية قصة لم تكن دعايـة سياسية، ولكنها ملحمة عالمية، ومن دون مسرحية غير خجولة.

عمـل يتّصف بالصدق والفرح معًا. ولـم أكن أعرف كيف سأكون قادرًا على القيام بذلك في أي وقت من الأوقات.

قالت نوتاغ: لـم أكن قادرًا على فعل ذلك حتى نأيت بنفسي بعيدًا عـن تلك البحوث، وقلت: حسنًا، ما الـذي تريد القصة قوله؟ وكنت في الوقت ذاته غير راغبة في كتابة مسرحية حِرفيّة؛ ولا أريد أن أسرد تلك الحكايـات. حيـث يمكنك الاطلاع على تقرير هيومـن رايتس ووتش، أو تقريـر منظمة العفو؛ لمعرفة ما يجري هناك. إنني أريد حقًّا أن يعرف النـاس من هنّ تلك النسوة؛ لأنه عندما جلسن لرواية حكاياتهن، قالت معظم النسـاء: نحن نروي لكم قصتنا من البداية وحتى النهاية، ولكن لا أحد يعرف من نحن.

علقـت صـور بعض هؤلاء النسـاء باللونين الأبيض والأسود على جدران بهو نادي مسرح مانهاتن، حيث كانت تعرض مسرحية روبند في نيويورك. كشفت عيونهن عن فظاعة الألم، فبعضها كانت مليئة بالدموع، وبدا الآخر يحدق خارجًـا وكأن جنًّا مسّها، متجنبة آلة التصوير. قالت نوتـاغ: كانت المرأة الوحيـدة التي وقفت بصورة حقة فـي مواجهة آلة التصويـر ابنة الرئيـس، وقد دخلت قصتها إلى قلبـي واستقرّت. حيث وصفـت كيف قامت مجموعة من الجنود بجرها إلى خارج منزلها حيث كانـت تجلـس، واقتيدت إلى السجـن، وجرى اغتصابها مـن قبل أربعة رجال. ولكي تهرب، قدمت لهم ساعتها رشوة؛ وهربت.

قامـت نوتـاغ بتوليـف شخصيـة جوزفين علـى غرار خبـرة تلك المرأة، وأسمت شخصيـة أخرى باسم سليمة تخليدًا لها. في منتصف

المسرحيــة، قامت سليمة بمناجاة نفسها، حيــث وصفت الصباح الذي دمــر عالــم الأســرة، والمنــزل، والعمــل. فقد كانــت تعتنــي بحديقتها النباتيــة، وابنتهــا الطفلة تلعب تحــت شجرة قريبة، تمامًــا مثل أي يوم آخــر. بينما كانتا ترتديان ملابسهما لبدء العمل في غرفتهما الصغيرة المشتركــة خلف الحانة، قالت سليمة لصوفي: كانت الشمس على وشك أن تتوسط كبد السماء، ولكني كنت مضطرة للعمل ساعة أخرى قبل أن يصبح النهــار حار جدًّا. ما أصفى ذلك اليــوم! وفيه، قدم طاوس رائع إلى الحديقة ساخرًا مني ومستعرضًا ريشه الجميل بتباهٍ! انحنيت قليلًا إلــى الأسفل وناديته: إس، إس، فشعرت بظــل يقع على ظهري. وعندما وقفــت، كان هناك أربعة رجال إلى جانبي يبتسمون ابتسامات التلاميذ الأشــرار. فقلت: نعم! فما كان من جندي طويــل القامة إلا غرس عقب بندقيتــه في خــدي، تمامًا بهــذه البساطة. كانت الحركــة سريعة جدًّا، لدرجة أنني لم أكن أعرف حتى أني سقطت على الأرض. من أين أتوا؟ لِمَ لَمْ أسمعهم؟ لا أدري!

قالت نوتاغ: فــي تلك اللحظة، كنت أستحضر كارثة الحادي عشر مــن سبتمبر، حيث كان ذلك اليوم صافيًا، جميلًا، مطلق الكمال. وكيف يمكــن أن تتغيــر حياتنــا فجــأة بصورة كلية فــي لحظة. هــذه التجربة المؤلمــة، وجود يــوم عادي مملوء بالكــوارث، تتردد مــرارًا وتكرارًا في المسرحية. قالت نوتاغ: لقد تحدثت كثير من النساء عن عدم توقع مثل تلــك اللحظة المشؤومــة، حيث ظهر الرجال فجــأة وكانوا فوقهن. فقد كنَّ فــي الحقل أو في منازلهــن، وبعضهم ركل البــاب... وكانوا هناك.

أضافت: واحدة من الأشياء التي لا يفهمها الناس ولا يعرفونها هو أنّ هناك مدًّا وجزرًا للحرب. حيث يسيّر الناس حياتهم اليومية، وفجأة يتدفق الجنود إلى المدينة، فتندلع الفوضى، ثم يتراجعون، ويضطر الناس إلى لملمة قطع حياتهم المبعثرة، والتوجه إلى أعمالهم، غير عالمين متى ستصيبهم المصائب مرة أخرى.

قالت نوتاغ: لقد فكّرت طويلًا في السبب الذي دعا هؤلاء النسوة إلى رواية قصصهن المليئة بالفظائع والألم لشخص غريب. وأضافت: أعتقد أنه الشّعور بالتقدير. شخص ما كان على استعداد للجلوس والتحلي بالصبر والاستماع إلى قصصهن من البداية وحتى النهاية . إضافة إلى أنهن شعرن بأن عمال الإغاثة غير مهتمين في الاستماع إلى حكاياتهن الشخصية؛ فعمال الإغاثة يريدون معرفة الخطوط العريضة لمعاناتهن فقط: ماذا حدث؟ هذا ما حدث. حسنًا، خذ حصتك من الحبوب، ثم الذهاب إلى مكان آخر؛ هذا ما كان يهمهم. لقد رُفضن من قِبَلِ أسرهن في كثير من الأمكنة، ولم تكن تلك الأسر على استعداد لسماع قصصهن. وقالت كثير من النساء إن كثيرًا من أصدقائهن وعائلاتهن لم يكنّ متعاطفات معهن؛ لأن ذلك جرح للجميع، ولا يريدون أن تبقى تلك الجروح مفتوحة، متقيحة، ومليئة بالذكريات الأليمة. وكانوا يرغبون في تغطيتها أو التخلص منها، بل إنّهم لا يودون معرفة أنها كانت موجودة.

تحمل شخصية صوفي جروحًا جسدية لا تلتئم. تجر جسمها، وتبرق على وجهها مسحة إحراج وألم، ومشية متعثرة من شخص يتألم

مع كل خطوة. صوفي جميلة، والرجال الذين يترددون على الحانة غالبا ما يخطبون ودّها، ولكن ماما نادي تحميها منهم. فصوفي ذكية، وتقوم بمتابعة حسابات ماما، وأحيانًا تحتفظ بقليل من النقود لنفسها. صوفي أيضًا مغنية مفعمة بالعواطف. والمسرحية مليئة بالموسيقا، والطبول تقرع بصوت مدوٍّ، والقيثارات تصدح بالألحان التي غالبا ما تكون مرحة. تغني صوفي للزبائن أغنية عنيفة تبدأ بجنون وتفاؤل، وتنتهي في نداء استغاثة، لتتناسب مع غوغائيتهم؛ حيث يصرخ أحدهم: هل لديك كأسًا أخرى من البيرة يا صديقي، فيسكرون ويبدون أغبياء ماجنين، ويقولون: تخلصوا من معاناة هذا اليوم الثقيلة. . . وارقصوا كما لو أن الحرب ستنتهي. الأغنية مليئة بالأمل واليأس في اللحظة نفسها.

كتبت نوتاغ كلمات الأغنية، وأرادت أن تؤدي الموسيقا دورًا قويًا في القصة. وقالت: إن أحد الأشياء التي كثيرًا ما أسمعها، هو سؤال الناس: أيمكن المزاوجة بين الجمال والقبح معًا؟ فأجيب: هذا هو مغزى ما أريده من المسرحية؛ واعتقدت أن التزاوج بين الموسيقا والأغاني هو الأكثر نجاحًا في هذا الصدد. وكذلك هذا الاصطدام المعقد بين الشخصيات أيضًا. حيث تبدو ماما نادي قلقة فقط عن نفسها، وتحاول جمع أكبر قدر من المال يمكن الحصول عليه من تلك الاضطرابات. ومع ذلك، تتصف بالروح المرحة والدعابة أحيانًا، وبالنقد اللاذع أحيانًا أخرى. ولكنها أيضا توفر لمحات من الحنان النادر، ولا سيما نحو صوفي. كتب أحد نقاد نيويورك تايمز، بن برانتلي: لقد وهبت نوتاغ

صوفـي المتداعية المنهارة، وماما العظيمة، قوة تحول هذه القصة من خراب إلى احتفال واضح الرؤية من القدرة على التحمل.

علـى الرغـم من أنهـا قضت وقتًـا قصيرًا فـي قارتهـا الجميلة، فـإنّ لين نوتاغ لا تتورع عـن تصوير حياتهن ووصـف أصواتهن وإعادة تصويرهـا مرة أخرى. وقالت: أنا لسـت إفريقية؛ بل إفريقية أمريكيّة؛ فعندمـا كنت أجلس مع النسـاء، شعرت بالتأكيد بمستـوى من الأخوة، وفهمت في أنني كنت أحكي قصة عالمية. نعم، هذا هو بالتحديد خاص بالكونغـو في هذا اليوم وهذا العصر، ولكن أعتقد في أنه قد يحدث في أيّ لحظة وفي أيّ مكان.

فـي العودة إلى الموضوع، تعدّ مسرحيـة رويند انتصارًا غير قابل للنقاش. فالشخصيـات تجد طريقها إلـى خيالنا وقلوبنـا، تمامًا كما قصدت المسرحية. قالت لين: كان من المهم حقًّا لي أن يكون الجمهور متفاعـلًا مع القصة. فأنـا أعرف المسرح وأستمتع بـه وأحبه. ولكنني أكـره أن يعظنـي أحد. فعندمـا أجلس في المسرح وأشعـر، أن شخصًا مـا يعظنـي، ويصف لي الدواء ومـا علي إلّا ابتلاعـه، أتوقف عن العمل والحركة. لقد دهش بعض الذين شاهدوا هذه المسرحية للنكتة والفرح اللذين يومضان وسط الكآبة والحرب والفظائع. لكلّ أؤلئك المتشكّكين فـي إمكان أن تعيش هـذه العناصر، تملك نوتاغ الإجابـة: هؤلاء الناس لم يـزوروا إفريقية، ولم يقضـوا أيّ وقت مع هؤلاء النّسـوة ليفهموا أن بالإمـكان التعذيب بوحشيـة، ولكن ما يزال هناك وسيلـة للشفاء. فقد كان من المهم جدًّا لي أن أكون متفائلًا في ذلك وأقول الحقيقة.

المصور الفنان جويل مايروتز

توثيق آثار ما بعد الكوارث

«لا أودّ أن أرى هذا التاريخ يختفي».

منذ مطلع الثمانينيّـات من القرن المنصرم، وطوال خمسة عشر عامًـا، كان يمتلـك جويل مايروتز استوديو في الطابـق الثاني عشر من مبنـى على الشـارع التاسع عشر غرب مانهاتن. وكانـت النوافذ تواجه الجنـوب، وتطل مباشرة على الشقق والمستودعـات المحاذية، وكذلك ناطحـات السحـاب في طرف الجزيـرة، التي كان يظللهـا برجا مركز التجارة العالمي.

كان مايروتـز يوثـق المنظر بمئـات من الصور فـي جميع أوقات اليـوم؛ بآلة تصوير لها شاشة رؤية بعرض أربعة إنشات وارتفاع ثلاثة إنشـات. وكثيرًا ما كان يعود إلـى الاستوديو حتى بعد أن انتقل منه عام 1996 لمواصلة تصوير مركز التجارة. وكانت إحدى الصور تذكر بحالة السمـاء عند الغسق، وعندما تبدأ أضواء المكاتب على طوابق البرجين بالسطوع أكثر مع اكتساء الغيوم بالسحب الزرق الدّكناء.

فـي وقت متأخـر من يـوم صيفي اتسمـت سمـاؤه بالصمت، زار مايروتز ذلك الاستوديو؛ كي يلتقط صورة أخرى للبرجين . قال في وقت

لاحـق: لقـد التقطت تلك الصورة التي كانت هادئـة جدا، وغير مؤثرة، وأتذكـر أننـي كنت أفكر في نفسي بوضوح أنهـا ليست مثيرة للاهتمام جـدًّا. وأضاف: لكنني سأعود في وقـت آخر. فهي ستبقى دائمًا هناك. كان ذلك في الخامس من سبتمبر 2001.

بعد أيـام، كان البرجان التوءمان في حالة خراب يتصاعد منهما الدخـان، فاقترب مايروتز من موقع الدمـار يحمل كاميرته. ومثله مثل الجميـع، كان فضوليًّـا، يودّ رؤية ما حدث في الأسفـل هناك. قال: مثل جميـع المارة الآخرين، وقفت خارج دوائر السيـاج عند تقاطع شارعي غرينتشـ وتشامبـرز، وكان كل مـا يمكـن رؤيتـه الدخـان وقليـلاً من الانقاضـ. رفعت آلـة التصوير للإلقـاء نظرة خاطفـة، لمجرد معرفة أهناك شـيء يمكن رؤيته؟ وإذ بشرطي، أو بالأحرى شرطية، تهز كتفي وتقول: مهلًا، لا يسمح بالتقاط الصور. كانت تلك الضربة التي أيقظني بالطريقة التي قصدت بها، على ما أعتقد.

وعندمـا سألتهـا: لِمَ يُمنع التقـاط الصور؟ أجابـت: هذا مسرح جريمـة، وفيـه لا يسمح بالتقـاط الصور. ثـم عاودتها بالسـؤال: ماذا ستفعليـن لو كنت صحفيّـاَ؟ أجابت: أوه، ارجع إلـى الخلف وابحث عن مـكان أعضاء الصحافة هنـاك. ومرة أخرى سألتهـا: متى يستطيعون الدخول إلى المكان؟ ردّت: ربما لن يدخلوا... أبدًا.

وعندمـا مشيت مبتعـدًا عن ذلك المكان، وكان لـي هذا التصور، وربمـا بسبب تلك الضربة، شعـرت بالمهانة بطريقة ما. ففكرت: لو لم تُلتقط أيّ صور، فلن يكون هناك أيّ توثيق لما حدث. إننا في حاجة إلى

مثـل هذا التوثيق. وفكرت: سأوثّق هـذا الحدث. سأجد طريقة للدخول إلى هناك؛ لأنني لا أريد أن أرى هذا التاريخ يختفي.

يعد جويل مايروتز واحدًا من المصورين البارزين في جيله، حيث يتسـم بعين غير عادية للـون والضوء. إضافة إلى أنـه عنيد جدًا، وهي السمـة التي خدمته في الأيـام التي أعقبت 11/9. مباشرة بعد لقائه مع الشرطيـة، بدأ مايروتز بالاتصال بـكل معارفه في مدينة نيويورك؛ من أجل اختراق طوق الأمن المحيط بالموقع. قال: حصلت على الإذن من خلال التوسل إلى مدير متحف مدينة نيويورك ليكتب لي رسالة مفادها أننـي أوثّق الحادث. ثـم حصلت على صديق هـو الآن مفوض الحدائق في نيويـورك، ليعطيني أمرًا بالمرور، ما جعلني قادرًا على الذهاب إلى المنطقة بصفتي عاملًا زائـرًا. كنت آمل أن تجعل تلك الرسالة الناس يستوعبـون أنني أوثّق ذلك الحـدث التاريخي، ولكن في الواقع، لم يقرأ معظـم الناس هناك الرسالة، أو أنهم لم يشاؤوا قراءتها. لذلك أوقفت مرارًا وتكرارًا، لكني أصررت على المضي قدمًا.

يعد مايروتز أيضـا مؤرخ التصوير الفوتوغرافي، وهذا ما ساعده علـى معرفـة كيفية التعامـل مع مهمة رهيبـة لتوثيق آثـار انهيار مركز التجـارة العالمي. قال: لقد كنت مستعدًا لذلك منذ أكثر من اثني عشر عامًا، حيث أعددت كتاب تاريخ أطلقت عليه اسم المارة: تاريخ تصوير الشارع الفوتوغرافي، وهذا ما سمح لي أن أكون في كل المحفوظات في أنحاء العالم. لذا، بدأت دراسة ما يبدو عليه المحفوظات (الأرشيف)؛ مـن حيـث العمـق، والمعنى، والضـرورة، والاكتمـال، والوصـف. وقلت

لنفسي: أعرف كيفية إعـداد الأرشيف؛ لأنني اطلعت على المحفوظات التاريخيـة الكبيـرة ومحفوظات الحـرب الأهلية، والأمـن الزراعي في مرحلة إدارة الكساد، ومحفوظـات مارفيل في باريس. لقد فهمت شيئًا جعلني أستثمر حواسي جيدًا؛ لأكون الشخص المناسب.

لقـد استطـاع مايروتـز الوصـول إلـى الموقع فـي اليـوم الثالث والعشريـن من سبتمبـر، وقضى معظـم وقته هناك. فقـد كان يقضي هنـاك ما لا يقل عن خمسة أيام في الأسبـوع، ويقضي أربع ساعات في اليـوم حدًّا أدنى، وقد يصـل الوقت الذي كان يقضيـه هناك إلى عشر ساعـات. وأحيانا كان من الصعب عليـه مغادرة المكان. فالأشياء التي يراهـا تذكره بالأفكار التـي ينبغي أن تكون في السجـل التاريخي؛ مثل نوعيـة الحياة فـي المنطقة. ويجب توثيـق كثير من النـاس الذين أتوا للعمل هنـاك، وقدموا أنواع الخدمات المتوافـرة لديهم جميعها. يجب القيام بذلك؛ كي يتمكن مؤرخ المستقبل، أو حتى مجرد شخص غريب، مـن الاطلاع علـى هذا التوثيق في عام 2050، ويعـود بالذاكرة خمسين عامًا إلى الوراء؛ ليتمكن من رؤية الملابس التي ارتداها الناس، ونوعية الضوء في المدينة، ومناظر الشاحنات والمعدات.

علـى مدى الأشهر الستة اللاحقة، التقط مايروتز أكثر من ثمانية آلاف صـورة فوتوغرافيـة. وكان من بين تلك الصـور كثير من الصور الإبداعية لأعمدة أنقاض المخازن القليلة المتبقية من البرج الجنوبي، التـي وقفت تحوم فوق كومة من القضبان المعدنية الملتوية التي ينبعث منهـا أعمدة الدخان، وخراطيم المياه ترشـ النيران المشتعلة. وكانت

إحـدى الصور تبين صورة كومة برونزية لتمثـال العالم الذي وضع في مكانه تخليدًا لذكرى تفجير البرج الشمالي عام 1993، تتوسط الساحة العامـة المليئـة بالركام والحطـام. وكما تبين صـورة بانوراميه أخرى الدمار في الليل، حيث الأنقاض يحيط بها الدخان والضباب.

كمـا كانت بعض الصور تبين ضخامة الكارثة، حيث امتلأ الموقع بـالآلات الضخمة، التي كانت تبدو صغيرة من خلال منظار عين النسر الموضـوع هناك، التي كانت تعمل على التخلص من أكوام المعادن التي كانـت تبدو وكأن لا نهاية لها. في حين تبيـن صور أخرى فراغ الشوارع الرهيب قرب موقع الانفجار، حيث كانت طبقة كثيفة من الغبار الأبيض تغطـي كل شيء، مـن الملابس فـي المحـالّ التجارية القريبـة، ولعب السيارات على أرضية شقة قريبة.

مـا الدور الذي كان على الفنان مايروتز، بصفته مصورًا صحفيًّا، القيـام به من أجل توثيق هذا الحدث غير العـادي؟ قال مايروتز: هذه الأحـداث توجد التوترات وتثيـر القضايا، والتصويـر الفوتوغرافي في نظـري قضيـة جمالية. وأضاف: هـل تأتي إلى مكان مثـل هذا، وتحمل معـك تصور جمالي مسبق، أم تـدع المكان يقول كيف ينبغي أن يوصف المحتوى؟ لذا، وجـدت نفسي أتجنب أيًّا من مظاهر الأنا التي قد تكون لـدى الفرد عندمـا يلتقط الصور، وكنت أترك الأمـر للمكان يسمح لي كيفية محاولـة التقاط صور مثيرة للاهتمـام، وتصف الحدث بصدق، ولكنها أيضًا تبقي العين على تلك الأمكنة التاريخية ذات الأهمية الأقل. فإذا فكرت للحظة واحدة في أي الصورة التاريخية قد رأيتها، ولنقل من

عام 1900، فستبرز صورة الشارع الثالث والعشرين، والجادة الخامسة، وصور السيارات، وعربة القطار الكهربائي (الترامواي)، والعربات التي تجرها الخيول، وأعمدة الإنارة الغريبة. وستلاحظ أن أنابيب مياه الإطفائية مختلفة. ويرتدي رجال الشرطة الأحزمة الرفيعة، والتنانير فوقها؛ وكما تبدو لافتات مختلفة. تعد كل تلك الأشياء خلفية، وحتى في مركز التجارة العالمي، فالخلفية هي الأشياء التي تبين محتوى المكان. لذا، وجب علي، بطريقة ما مؤرخًا وفنانًا، محاولة تعميق مجال ملاحظتي واهتمامي، وهو ما يعني في بعض الأحيان التخلي عن صورة درامية كبيرة عن قرب؛ من أجل السماح للخلفية الإفصاح عن نفسها ومكان وجودها، إضافة إلى الجزء الأمامي من الصورة. لقد وجدت نفسي منفتحًا، إلى إعادة اختراع وسيلة لأبحث عن نفسي. وربما كانت هذه التجربة خبرة تعلم عميقة. أجل؛ كنت أتطور جماليّا مرة أخرى.

في كثير من الصور الفوتوغرافية، كان مايروتز يولي اهتمامًا وثيقًا نحو الأشخاص الذين يعملون هناك، حيث كان يلتقط صورهم وهم يرفعون بالرافعات الأعمدة التي سقطت من جراء الحدث، وصور أجهزة الحفر الضخمة التي ترفع البقايا المعدنية، وصور المطرقة الآلية الثقيلة التي تقف بالقرب من الجرافة، حيث تحفر الأرض بعناية للنظر من خلال الحفر العملاقة، حيث احتمال وجود بشر ما زال قائمًا. وتظهر صورة معتمة الموقع مع الشفق، وبوجود ظلال الناس فقط في المقدمة. قال: كانت الصورة بعد الغسق مباشرة، تغير ضوء الشمس من اللون الوردي إلى اللون الأرجواني، وكنت أقف مع حفنة

من رجال فريق الانفجار، وكانوا حراسي الدائمين؛ ومن دونهم لم يكن باستطاعتي فعل أيّ شيء على نحو مستمر. كنا نقف على تلة صغيرة أقاموها وسط كومة من الركام، حيث كان عليهم شق طريقهم للوصول إلى الداخل. وكنا نسمع من القاع صوتًا حزينًا ينتج من الضرب على الصنابير والأبواق. وكان في الأسفل رجل يربط العلم الأمريكي بحقيبة له، وكان يعزف لحن رثاء الأموات. وكانت الدموع تنهمر من عيوننا جميعًا، وأبداننا مقشعرّة. كان ذلك منظرًا، لو شاهدناه في المسرح أو السينما، ويدور حول جسم هائل معلق في الفضاء مثل الكولوسيوم، فسنبكي وسيبكي جميع من في المسرح أو دار السينما.

كان العمل سريعًا، وكانت التغيرات هائلة. وكان من المتوقع أن يستغرق التنظيف عامًا كاملًا، وبدلًا من ذلك فقد نُظِّف الموقع في تسعة أشهر تقريبًا. قال مايروتز: كانت تلك العملية تتغير كلما تغير الموقع. في البداية، وددت لو كان معي خمسة مصورين آخرين؛ لأنني اعتقدت أن العمل المطلوب يحتاج إلى فرقة عمل من المصورين للقيام بذلك. كان هناك كثير من الأشياء التي استُبعدت بسرعة. ولكن المدينة لم تكن لتسمح لي في الدخول، لذا، كان توقع السماح بدخول خمسة آخرين يفوق التوقعات جميعها. لذلك، وجدت نفسي أسابق العمل؛ للوصول إلى الأشياء قبل إبعادها، مثل قطع الأشجار، وتنظيف المقابر خلف كنيسة القديس بولس، حيث كان يذهب جورج واشنطن للتعبد والصلاة، التي كانت تقع عبر الشارع في مواجهة موقع مركز التجارة العالمي، والتخلص من الأنقاض في المكاتب والشوارع الجانبية. كنت أحاول

أن أسجـل كل شـيء؛ حيث وجـدت نفسي أسابق الزمن مـن نقطة إلى أخـرى، وكانـت الكومة نفسها مشهدًا رائعًا، وكنـت أقوم بجولتي حولها كل يـوم، وربما مرتين في اليوم، فـي جميع أنحاء الكومة، وعبرها حيث أمكننـي ذلك. ولكن، وببـطء ليس بالشديد، أزالـوا أطنانًا من الركام، وأصبحـت الكومـة الآن حفرة، حفرة عميقة. لذا، بـدا المنظر مختلفًا، وتغير ما يمكن رؤيته. لم يعد المنظر مثيرًا، ولكن كان الأهم هو طريقة الحفر حتى وصلوا إلى القواعد، والأنابيب، ومواقف السيارات. فالمكان الآن مختلـف وغامض، وقد وصلوا إلى النقطة حيث حوض الاستحمام، وهـو الأساس الذي بنـي عليه برج منظمة التجـارة العالمية، الذي كان يحجـز مياه نهر هدسـون، حيث كشف عن النقطة التـي كانوا يحاولون الوصول إليها شهـورًا عدّة. حيث كانت الأنابيب الطويلة، وذلك الجدار يقفـان حائلًا ضد تسرب المياه من النهر. فهي كمحاكم المايا الهائلة، والأهـرام تقـف شاهدًا علـى الزمن. وكأن فـي ثناياها شيئًـا شعائريًّا عميقًا عن هذا الموضوع.

لقـد تغير مايروتز تغيـرًا عميقًا من تجربة تصويـر هذا المكان، يومًـا بعد يوم. قـال: كنت أولًا، أشعـر مرة أخرى في مثـل عمري الآن، وكنـت في أوائل الستينيـات، بالحاجة إلى أن كون أكثـر فائدة بصفتي فنانًـا. لقـد كانت هناك مدّة، عندمـا كنت أصغر سنًّا، كنـت فيها قلقًا اجتماعيًّـا وملتزمًا أكثر بفعـل الأشياء عن حرب فيتنـام وعن حياتنا. وعنـد منتصـف العمر، كنـت أتسـاءل عن مـدى ارتباطـي بالتصوير الفوتوغرافـي، وكنت أسأل: لِمَ تبدو الصور بهذه الطريقة، وكيف تعمل،

وكيف توصف الأشياء؟ إنه نوع من الفن من أجل الفن نفسه. وعلى مدى السنـوات العشر الماضية، شعرت في الحاجـة إلى فعل شيء أكثر نفعًا ووعيًا اجتماعيًّا. لذلك، كنت أشعر عندما أقف وأقول إنني سأفعل ذلك دون تمويـل، ولم أكن قد حصلت علـى أيّ تمويل حتى الآن، ولا المتحف كذلـك، كنت أشعـر كمن هو متعلـق بنسمة بسيطة مـن الأمل، ولكن لا يمكننـي الانتظار حتى تتحقق المقترحـات وتكون مكتوبة، فقد كنت في حاجة إلى القيام بذلك مهما كان الثمن.

هـذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كنـت أشعر بأنني مسيس. حيث كانـت هنـاك روحية نوعيـة لتلك المنطقة وهـذا لا يمكن إنـكاره. فأنت تدخل مـن خلال الأقفال، والبوابات جميعها حالًا، وتصل في النهاية إلى الكومـة نفسها، على الأقل في البداية، وتـدرك أن هناك ألفًا أو أكثر من الأشخاص الذين دفنوا تحت تلـك البقايا وما زالـت جثثهم هناك. إنه مـكان رهيب يحـركك بعمق. وكل شيء يقوم به العمـال ومشغلو الروافع، والحفارون، ورجـال الشرطة، ورجال الإطفاء، يتم بلطف وعن طيبة قلب واضحة؛ حيث إنها الرّابط الذي يجمع هؤلاء جميعهم. وهناك أيضًا نوع من الصبغة الدينية التي ليست محددة بأي دين معين، ولكن عن طريق الشعور الروحاني فقط. فأشعر بليونة ونعومة بطريقة ما، وأكثر احترامًا للجميع.

بعـد ظهور واحـدة من الصور التـي التقطها في مجلـة نيويوركر فـي أكتوبر من عام 2001، اتصل ممثل مـن وزارة الخارجية الأمريكية بمايروتـز، وكان مهتمًـا فـي إنشاء معرض لصوره عن المـكان. قالوا بالضبـط: نـود إرسال معرض لصـور المكان إلى أصدقائنـا وأعدائنا

جميعهـم في أنحاء العالم. فقد أرادوا إرسـال تلك الصور إلى البلدان الإسلاميـة فـي كل مكان؛ حتـى يتمكنوا من التحقق مـن حدوث العمل الإرهابـي حقًّا. وأن هذه صور ذلك الهجـوم الإرهابي، وأنه لم يكن من أفـلام هوليوود أو عملًا ملفقًا. وأننا نعمل على شفاء أنفسنا، ونحن في طريقنـا نحو استعـادة انتعاش الأعمال التجاريـة، والخلاص على كثير من المستويات. وبعد ستـة أشهر من الكارثة، افتتحت وزارة الخارجية المعارض في أكثر من عشرين دولة.

نشـر مايروتـز كثيرًا من هذه الصور عـام 2006 في كتاب بعنوان ما بعد الكارثة، آفتر ماث، ويمكن رؤية عدد منها على موقعه على شبكة الاتصالات العالمية (الانترنت).

إنّ صور مايروتـز ولوحاته قوية غريزيًّا، حيث مضت سنوات عدة قبـل أن أصبحـت قـادرًا على النظـر إليهـا دون البكاء. إنهـا تعيد لي، وأظـن لكلّ من أمضى بعض الوقت قرب الموقع فـي الشهور التي تلت الهجمـات ذكرى الخسارة الفظيعة التي شعـرت بها، والرائحة النفاذة التـي تغلغلت فـي ملابسي وشعري بعد يوم عمل فـي المكتب، والصورة الموجعة للخراب، والعمل المحموم، وأخيرًا، الفراغ الذي كان يلمّ بي في كلّ مـرة كنت أمر بموقع الكارثة وأنـا على الطريق إلى محطة المذياع. كانـت بعض الصور جميلة ومدهشة على نحو غير متوقع، حيث أظهرت الضوء فضلًا على الحطام. في محادثته مع مايروتز، سأل كورت قائلًا: بعض هذه الصـور الجميلة مدهشة جدًّا، فهل تجـد مشكلة في تحديد الموضوع؟ ولإظهار شيء قبيح جدًّا في مثل هذه الطريقة الرائعة؟

أجاب مايروتز: كان العمل قبيحًا، قويًّا، ومأساويًّا، ومروّعًا. ولكنه كان أيضًـا، كمـا هي الحال فـي الطبيعة، حدثًا هائـلًا، تحولت الأشياء بعـد وقوعه إلى هذه المخلفات. ومثل كثير من الأطلال الأخرى، عندما تذهـب إلى أطلال الكولوسيوم أو أطـلال كاتدرائية في مكان ما، فأنها تأخذ معنى جديدًا عند مشاهدتها. بعد الظهر كنت هناك، وكان الضوء متشحًـا باللـون الـوردي، والضباب يعبر فـي الهواء، وكنـت واقفًا على الأنقاض، فوجدت نفسي أعترف بكلّ من الجمـال الكامن في الطبيعة وحقيقـة أن الطبيعـة، كمـا الوقـت، كفيل بمحـو هذا الجـرح. ستعالج نفسها، ولا يمكن وقـف الزمن الذي يحول الحدث؛ ويبتعد الحدث أبعد وأبعـد من كلّ يوم، ويعمل الضوء والمواسم علـى تغييره بصورة ما. أنا لسـت حالمًا عاطفيًا؛ ولكنني واقعي. في الحقيقة، هناك مبنى وولورث، خلف حجاب من دخان الموقع، لكنه الآن مثل الستارة عبر المسرح وقد تحول إلـى اللون الوردي! وفي الأسفل هنـاك خراطيم الرش، وأضيئت أضـواء المساء، وقد تحول لـون الماء إلى لون الحامض الأخضر بسبب مصابيح الصوديوم المضاءة. عندها قلت: يا إلهي، من الذي يمكنه أن يحلم بهذا الأمر؟ ولكن الحقيقة أنني هناك، ويبدو أن لا بد من التقاط صورة.

في الأسبوع اللاحق لهجوم سبتمبر، سأل كورت من خلال برنامج ستوديـو 360 الشاعرة ماري بونسوت: ما الذي يمكن للفنانين القيام به عندما يواجههم مثل هذا الدمار. فأجابت على الفور: أعتقد أنها لحظة حرجة للفنانين، وأولئك الذين يحبون الفنون، وأولئك الذين يصنعونها.

وأعتقد أنك تطرح على نحو خاص من الناس الذين يصنعون الفن سؤالًا مؤثـرًا جدًا مفاده، إذا كنت تعتقد أنّ الفـن لا يستحق العمل من خلاله فـي مثل هذا الوقـت، فلربما هو لا يستحق القيام به فـي أيّ وقت آخر. وإذا كنـت تعتقـد أنّ الفن هو فـي الواقع جزء مما أسميـه عمل العالم، عندها تكون مخلصًا له، وتنظر إليه بقوة الآن، بصورة حقة.

openkan.com